



محمود درويش

يوهيات

البنْت / الصرْحَة

على شاطئ البحر بنتٌ، وللبنت أهلٌ
وللأهل بيتٌ. وللبيت نافذتان وبابٌ . . .
وفي البحر بارجةٌ تتسلى بصيد المشاة
على شاطئ البحر: أربعة، خمسة، سبعة
يسقطون على الرمل. والبنْت تنجو قليلاً
لأنَّ يداً من ضبابٍ
يداً ما إلهيةٌ أسعفتها. فنادت: أباي
يا أباي! فم لنرجع، فالبحر ليس لأمثالنا!
لم يُجبها أبوها المسجى على ظلّه
في مهبّ الغياب
دّم في النخيل، دّم في السحاب

يطير بها الصوتُ أعلى وأبعد من
شاطئ البحر . تصرخ في ليلٍ بريةٍ ،
لا صدَى للصدى .
فتصير هي الصرخةُ البدئيةُ في خبرٍ
عاجل لم يعد خيراً عاجلاً عندما
عادت الطائرات لتتصرف بيتاً بنافتين وبابٍ ! .

ذباب أخضر

المشهد هُو هُو . صَبْفٌ وَعَرَقٌ . وخيالٌ يعجز عن رؤية ما وراء الأفق .
واليوم أفضلُ من الغد . لكن القتلى هم الذين يتجددون . يُولدون كل يوم .
وحين يحاولون النوم يأخذهم القتلُ من نعاسهم إلى نوم بلا أحلام . لا قيمة
للعدد . ولا أحد منهم يطلب عوناً من أحد . أصوات تبحث عن كلمات
في البرية ، فيعود الصدى واضحاً جارحاً : لا أحد . لكن ثمة مَنْ يقول :
«من حقِّ القاتل أن يدافع عن غريزة القتل» . أمّا القتلى فيقولون متأخرين :
«من حقِّ الضحية أن تدافع عن حقِّها في الصراخ» . يعلو الأذان صاعداً من
وقت الصلاة إلى جنازات متشابهة : توابيت مرفوعة على عجلٍ ، تُدفن على
عجل . . . إذلا وقت لإكمال الطقوس ، فإن قتلى آخرين قادمون ، مسرعين ،
من غارات أخرى . قادمون فرادى أو جماعات . . . أو عائلةً واحدةً لا تترك
وراءها أيتاماً وثكالي . السماء رماديةً رصاصيةً . والبحر رماديّ أزرق . أمّا
لون الدم فقد حجبته عن الكاميرا أسرابٌ من ذباب أخضر ! .

كقصيدة نثرية

صَبْفٌ خريفِيٌّ على التلال كقصيدةٍ نثرية . النسيمُ إيقاعٌ خفيفٌ أحسَّ
به ولا أسمعُه في تواضع الشجيرات . والعشب المائل إلى الإصفرار صَوْرٌ
تتقشّف ، وتُغري البلاغة بالتشبه بأفعالها الماكرة . لا احتفاء على هذه الشعاب

إِلَّا بِالمَتاحِ من نشاطِ الدُّورِيِّ، نشاطِ يراوح بين معنَى وَعَبَثٍ. والطبيعة جسد يتخفّف من البهرجة والزينة، ريشما ينضج التين والعنب والرّمان ونسيانٌ شهواتٍ يوقظها المطر. «لولا حاجتي الغامضة إلى الشعر لما كُنْتُ في حاجة إلى شيء» يقول الشاعر الذي خَفَّتْ حماسُهُ فَقَلَّتْ أخطاؤُهُ. ويمشي، لأن الأطباء نصحوه بالمشي بلا هدف لتمارين القلب على لا مبالاةٍ ما ضرورية للعافية. وإذا هَجَسَ، فليس بأكثر من خاطرةٍ مجاتية. الصيف لا يصلح للإنشاذ إلا فيما ندر. الصيف قصيدةٌ نثرية لا تكثرث بالنسور المحلقة في الأعالي.

ليتني حجر

لا أحنُّ إلى أيِّ شيءٍ
فلا أمسٍ يمضي، ولا الغدُّ يأتي
ولا حاضري يتقدّم أو يتراجع
لا شيءٌ يحدثُ لي!
ليتني حجرٌ. قلتُ. يا ليتني
حَجَرٌ ما ليصقلني الماءُ
أخضرُّ، أصفرُّ... أو ضَعُ في حجرةٍ
مثل منْحوتةٍ، أو تمارين في النحتِ،
أو مادّةٍ لانبثاقِ الضروريِّ
من عَبَثِ اللا ضروريِّ...
يا ليتني حَجَرٌ
كي أحنَّ إلى أيِّ شيءٍ!

أبعد من التماهي

أجلِسُ أمام التلفزيون، إذ ليس في وسعي أن أفعل شيئاً آخر. هناك،

أمام التلفزيون، أعثر على عواطفني. وأرى ما يحدث بي ولي. الدخان يتصاعد مني، وأمدُّ يدي المقطوعةً لأمسك بأعضائي المبعثرة من جسم عديده، فلا أجدها ولا أهرب منها من فرط جاذبية الألم. أنا المحاصر من البرّ والجو والبحر واللغة. أقلعت آخر طائرةٍ من مطار بيروت، ووضعتني أمام التلفزيون، لأرى بقية موتي مع ملايين المشاهدين. لا شيء يثبت أنني موجود حين أفكر مع ديكارت، بل حين ينهض مني القربان، الآن، في لبنان. أدخل في التلفزيون، أنا والوحش. أعلم أن الوحش أقوى مني في صراع الطائرة مع الطائر. ولكنني أدمنت، ربما أكثر مما ينبغي، بطولّة المجاز: التهمني الوحش ولم يهضمني. وخرجتُ سالمًا أكثر من مرة. كانت رוחي التي طارت شعاعاً مني ومن بطن الوحش تسكن جسداً آخر أخفّ وأقوى. لكنني لا أعرف أين أنا الآن: أمام التلفزيون، أم في التلفزيون. أما القلب فيني أراه يتدحرج، ككوز صنوبر، من جبل لبناني إلى غزة!

العدو

كُنْتُ هناك قبل شهر. كُنْتُ هناك قبل سنة. وكنت هناك دائماً كأنني لم أكن إلا هناك. وفي عام ٨٢ من القرن الماضي حدث لنا شيء مما يحدث لنا الآن. حُوصِرْنَا وَقُتِلْنَا وَقَاوَمْنَا مَا يُعْرَضُ عَلَيْنَا مِنْ جَهَنَّمَ. القتل/ الشهداء لا يتشابهون. لكل واحدٍ منهم قوأم خاص، وملامح خاصة، وعينان واسمٌ وعمُرٌ مختلف. لكن القتلة هم الذين يتشابهون. فهم واحدٌ مُوزَّع على أجهزة معدنية. يضغط على أزرار الكترونية. يقتل ويختفي. يرانا ولا نراه، لا لأنه شَبَّح بل لأنه قنَّاع فولاذي لفكرة... لا ملامح له ولا عينان ولا عمر ولا اسم. هو... هو الذي اختار أن يكون له اسم وحيد: العَدُو.

نيرون

ماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفّرج على حريق لبنان؟ عيناه زائغتان من النشوة، ويمشي كالراقص في حفلة عرس: هذا الجنون، جنوني، سيّد الحكمة، فلتشعلوا النار في كل شيء خارج طاعتي . . . وعلى الأطفال أن يتأدّبوا ويتهدّبوا ويكفوا عن الصراخ بحضرة أنغامي!

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفّرج على حريق العراق؟ يسعده أن يوقظ في تاريخ الغابات ذاكرة تحفظ اسمه عدواً لحمورابي وجلجامش وأبي نواس: شريعتي هي أمّ الشرائع. وعشبة الخلود تنمو في مزرعتي. والشعر، ما معنى هذه الكلمة؟

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفّرج على حريق فلسطين؟ يبهجه أن يدرج اسمه في قائمة الأنبياء نبياً لم يؤمن به أحد من قبل. نبياً للقتل كلفه الله بتصحيح الأخطاء التي لا حصر لها في الكتب السماوية: «أنا أيضاً كليم الله!»

وماذا يدور في بال نيرون وهو يتفّرج على حريق العالم؟ «أنا صاحب القيامة». ثم يطلب من الكاميرا وقف التصوير، لأنه لا يريد لأحد أن يرى النار المشتعلة في أصابعه في نهاية هذا الفيلم الأميركي الطويل!

الغابة

لا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو
خَلتِ الغابة من جوع الوحش . . . وعاد
الجيش المهزوم أو الظافر، لا فرق، على
أشلاء الموتى المجهولين إلى الشكنات أو
العرش/

ولا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو
حَمَلَتْهُ الريح إليّ، وقالت لي:

«هذا صوتك» . . لا أسمعه/!

لا أسمع صوتي في الغابة حتى
لو وَقَفَ الذئبُ على قدمين وَصَفَّقَ
لي: «إني أسمع صوتك، فلتأمرني!/»
فأقول: الغابة ليست في الغابة،

يا أبتي الذئبُ ويا ابني!/

لا أسمع صوتي إلا إن خَلَّتِ
الغابةُ مني، وخلوتُ أنا من
صمت الغابة!

حمام

رُفٌّ من الحمام ينقش فجأة من خلل الدخان . يلمع كبارقة سلم سماوية .
يحلّق بين الرماديّ وفُتات الأزرق على مدينة من ركام . ويذكرنا بأنّ الجمال
ما زال موجوداً، وبأنّ اللاموجود لا يعبث بنا تماماً إذ يعدنا، أو نظنّ أنه يعدنا
بتجلي اختلافه عن العدم . في الحرب لا يشعر أحد منا بأنه مات إذا أحس
بالألم . الموت يسبق الألم، الألم هو النعمة الوحيدة في الحرب . ينتقل من
حيّ إلى حيّ مع وقف التنفيذ . وإذا حالف الحظُّ أحداً نسي مشاريعه البعيدة
وانتظر اللاموجود وقد وُجد محلّقاً في رفّ حمام . أرى في سماء لبنان كثيراً
من الحمام العابث بدخان يتصاعد من جهة العدم!

البيت قتيلاً

بدقيقة واحدة، تنتهي حياة بيت كاملة . البيت قتيلاً هو أيضاً قتلٌ جماعيّ
حتى لو خلا من سكانه . مقبرة جماعيّة للمواد الأولية المعدّة لبناء مبنى للمعنى،
أو قصيدة غير ذات شأن في زمن الحرب . البيت قتيلاً هو بتر الأشياء عن
علاقاتها وعن أسماء المشاعر، وحاجة التراخيديا إلى تصويب البلاغة نحو

التبُّصُر في حياة الشيء . في كل شيء كائنٌ يتوجَّع . . . ذكرى أصابع و ذكرى رائحة و ذكرى صورة . والبيوت تُقتلُ كما يقتل سكانها . وتُقتلُ ذاكرة الأشياء : الحجر والخشب والزجاج والحديد والاسمنت تتناثر أشلاء كالكاثنات . والقطن والحريير والكتان والدفاتر والكتب تتمزق كالكلمات التي لم يتسنَّ لأصحابها أن يقولوها . وتنكسر الصحون والملاعق والألعاب والأسطوانات والحفريات والأنابيب ومقابض الأبواب والثلاجة والغسالة والمزهريات ومرطباتان الزيتون والمخللات والمعلبات كما انكسر أصحابها . ويُسحق الأبيضان الملح والسكر والبهارات وعلب الكبريت وأقراص الدواء وحبوب منع الحمل / والعقاقير المنشطة وجدائل الثوم والبصل والبندورة والبامية المجففة والأرز والعدس كما يحدث لأصحابها . وتتمزق عقود الأيجار ووثيقة الزواج وشهادة الميلاد وفاتورة الماء والكهرباء وبطاقات الهوية وجوازات السفر والرسائل الغرامية كما تتمزق قلوب أصحابها . وتتطاير الصور وفُرُش الأسنان وأمشاط الشَّعر وأدوات الزينة والأحذية والثياب الداخلية والشراشف والمناشف كأسرار عائلية تُنشر على الملاء والخراب . كل هذه الأشياء ذاكرة الناس التي أفرغت من الأشياء ، وذاكرة الأشياء التي أفرغت من الناس . . . تنتهي بديقة واحدة . إن أشياءنا تموت مثلنا ، لكنها لا تدفن معنا!

مكرر المجاز

مجازاً أقول : انتصرتُ

مجازاً أقول : خسرتُ . . .

ويمتد وادٍ سحيقٍ أمامي

وأمتد في ما تبقى من السنديان

وثمة زيتونتان

تُكلمانني من جهاتٍ ثلاثٍ

ويحملني طائران

إلى الجهة الخالية
من الأوج والهاوية
لثلاث أقول: انتصرتُ
لثلاث أقول: خسرتُ الرهان!

عملية تسلل

اليوم، في السادس والعشرين من تموز، تمكن واحد وعشرون قتيلاً/ شهيداً في غزة، بينهما رضيعان، من اجتياز الحواجز العسكرية والأسلاك الشائكة... والتسلل إلى نشرة الأخبار. لم يُدلو بأي تعليق، إذ وقع الألم منهم قبل الوصول إلى الكلمة. ولم يبوحوا بأسمائهم من فرط ما هي فقيرة وعادية. ولم يرفعوا إشارات النصر أمام الكاميرا لاذحام الكاميرا بصور أكثر إثارة. الحرب إثارة، مسلسل يقضي فيه الفصل الجديد على الفصل السابق، ومذبحة تنسخ مذبحة. وحين يصير القتل يوماً يصير عادياً ويتحول القتلى أرقاماً، ويصير الموت إلى روتين، ولا تتجاوز الحرارة درجة الثلاثين. الروتين يسبب الملل. والملل يبعد المشاهد عن الشاشة، ويحرم المراسل من العمل. وحين يقلُّ المشاهدون تنضب الإعلانات فتصاب صناعة الصورة بالكساد. يضاف إلى ذلك: أن مواقع غزة التصويرية صارت مألوفاً ضعيفة الإيحاء. سماء رصاصية على أزقة ضيقة في مخيمات لا تطل على البحر. لا مرتفعات هناك، ولا مشاهد طبيعية تسرُّ المشاهد. كل شيء عادي القتل عادي والجنائز عادية والشوارع رمادية. أما ما هو غير عادي اليوم، فهو: أن يتمكن واحد وعشرون قتيلاً/ شهيداً من التسلل الجريء، وبلا مرشدين، إلى نشرة الأخبار!

البعوضة

البعوضة، ولا أعرف اسم مذكرها في اللغة، أشدُّ فتكاً من النميمة. لا

تكتفي بمصّ الدم، بل ترّج بك في معركة عبثية . ولا تزور إلا في الظلام كحُمى
المتنبي . تَطْنُ وتُرْتُن كطائرةٍ حربيّة لا تسمعها إلا بعد إصابة الهدف . دَمَكَ هو
الهدف . تشعل الضوء لتراها فتختفي في ركن ما من الغرفة والوساوس ، ثم
تقف على الحائط . . . آمنّة مسالمةً كالمستسلمة . تحاول أن تقتلها بفردة حذائك ،
فتراوغك وتفلت وتعاود الظهور الشامت . تكرر محاولتك وتفشل . تشتمها
بصوت عال فلا تكثرث . تفاوضها على هدنة بصوت ودّي : نامي لأنام ! تظن
أنك أفنعتها فتطفئ النور وتنام . لكنها وقد امتصت المزيد من دمك تعاود
الظنين إنذاراً بغارة جديدة . وتدفعك إلى معركة جانبية مع الأرق . تشعل
الضوء ثانية وتقاومهما ، هي والأرق ، بالقراءة . لكن البعوضة تحط على
الصفحة التي تقرؤها ، فتفرح قائلاً في سرّك : لقد وَقَعْتُ في الفخّ . وتطوي
الكتاب عليها بقوة : قتلتها . . . قتلتها ! وحين تفتح الكتاب لتزهو بانتصارك ،
لا تجد البعوضة ، ولا تجد الكلمات . كتابك أبيض . البعوضة ، ولا أعرف
اسم مذكرها في اللغة ، ليست استعارةً ولا كنايةً ولا توريةً . إنها حشرة تحبّ
دمك . تشمه عن بعد عشرين ميلاً . ولا سبيل لك لمساومتها على هدنة غير
وسيلة واحدة هي : أن تعيّر فصيلة دمك !

بقية حياة

إذا قيل لي : ستموتُ هنا في المساء
فماذا ستفعل في ما تبقى من الوقتِ ؟
- أنظرُ في ساعة اليد /
أشربُ كأس عصيرٍ ،
وأقضمُ تَفَاحَةً ،
وأطيلُ التأمّلَ في غملةٍ وَجَدْتُ رزقها ،
ثم أنظرُ في ساعة اليد /
ما زال ثمة وقتٌ لأحلق ذفتي

وأغطس في الماء / أهجس :
«لا بُدَّ من زينة للكتابة/
فليكن الثوب أزرق»/
أجلسُ حتى الظهيرة حياً إلى مكتبي
لا أرى أثر اللون في الكلمات ،
بياض ، بياض ، بياض . . .
أعدُّ غدائي الأخير
أصبُّ النبيذ بكأسين : لي
ولمن سوف يأتي بلا موعد ،
ثم آخذ قِيلوَلَّةً بين حُلَمين /
لكنَّ صوت شخيري سيوقظني . . .
ثم أنظر في ساعة اليد :
ما زال ثَمَّةَ وَقْتٍ لأقرأ /
أقرأ فصلاً لداتني ونصفَ مَعَلَّةٍ
وأرى كيف تذهب مني حياتي
إلى الآخرين ، ولا أتساءل عَمَّنْ
سيملاً نقصانها
.. هكذا ؟
.. هكذا ، هكذا
.. ثم ماذا ؟
.. أمشط شَعْرِي ، وأرمي القصيدة . . .
هذي القصيدة في سلة المهملات
وأليس أحدث قمصان إيطاليا ،
وأشيع نفسي بحاشية من كمنجات إسبانيا
ثم أمشي إلى المقبرة !

قانا [طبعة جديدة]

فجر اليوم، الثلاثين من تموز، حَقَّقت دولة إسرائيل تَفَوُّقَهَا العسكري الكاسح: انتصرت على الأطفال في قانا، وقَطَّعتهم أشلاء. كان الأطفال نائمين حالمين بالعودة إلى أَسْرَتِهِم الأَصْلِيَّة سالمين، وربما حالمين بسلام صغير على هذه الأرض الصغيرة، يكبرون على مَهْلٍ على مهل، ويذهبون إلى المدرسة في أول الخريف، ويهربون منها لا خوفاً من الطائرات . . بل سأمًا من درس الجغرافيا. لكنهم قُتلوا دون أن ينتبهوا، فيخافوا ويصرخوا. كانوا نائمين وظلوا نائمين . . أيدي بعضهم على صدورهم، وأيدي بعضهم مقطوعة. لم أَبْكِ منذ فترة طويلة، منذ أدركتُ أن دمعتي تُفرح من يُحِبُّوني ميتاً. ولكن الذين يريدوننا ميتين فرحون اليوم مَزْهُوُونَ بانتصارهم . . . بانتصار غريزة الكراهية والقتل المجاني على فطرة حبِّ الأطفال لأمهاتهم. لا، ليس الحليب أسود. الحليب دم سائل ومُجَفَّف. فلا أَبْكِ إذاً بلا حَرَجٍ وبلا خشية من شماتة. فالقتلة إِيَّاهم الخارجون من قانا الأولى يخافون علينا من النسيان، ويعيدون تمثيل المذبحة وارتكابها لئلا يحسب أحدٌ منا أن أحلام أطفالنا بالسلام ممكنة التحقق. لم يعتدروا هذه المرة، لئلا يتهمهم أحدٌ منا بالرغبة في التكافؤ الأخلاقي بين القاتل والقتيل. لا، لا أستطيع الكلام مع أحدٍ لئلا يسألني: ماذا تكتب؟ لا أخلاق للوصف إذا نزعَت اللغَةُ إلى البلاغة، فليس من حق اللغَة أن تشرح الصورة، الصورة التي تضيق بتناثر أشلاء الملائكة الصغار. كم من يسوع صغير تتسع له الأيقونة؟ من يستطيع أن يكتب شعراً اليوم وأن يرسم لوحة وأن يقرأ رواية وأن يستمع إلى موسيقى . . . فهو آثم. إنه عيد الدولة التي انتصرت على الملائكة، وذَكَرْنَا بأن الهدنة هي استراحتها القصيرة بين مذبحة ومذبحة!